المعلقة السادسة

(أو كتاب الفرح)

ديزيره سقال

المعلقة السادسة

(أو كتاب الفرح)

الطبعة الأولى

٢٠١٦

دار كتابات

بيروت – لبنان / هاتف + فاكس ٨٢٣٤٥٨ / ٠١
هاتف: ٣١٢٧٣٣ / ٠١ ص.ب.: ١٣٦١٠١

نبيٌّ من أنبياء الشِّعر

سألتُ، ذاتَ مرَّةٍ، جوزف حرب: "لِمَ كلُّ هَذا الحزنِ في شِعرِك، وما شِعرُك سوى مَبْعَثِ فَرحٍ لي ولكُثُرٍ غَيري؟

أجاب، ما عَدَدْتُه أجملَ قصائِدِه: "يا صديقي، لم نَجِئْ إلى هذهِ الدُّنيا كي نَفرحَ، بل كي نُقَلِّلَ الحُزْن".

وها يجيئُك ديزيره سقَّال بمعلَّقةِ الفَرح، فيلتقي مع جوزف حرب على أنَّ مُنْتَهَى الفَرَحِ

ومُشْتَهاه، ما هو إلَّا القَصيدةُ: الكونُ الجديدُ الّذي يَخلقُهُ خيالُ شاعرٍ، وحُلمُ شاعرٍ، فَلا يمكنُهُما أن يَكونا، إِذْذاكَ، إلَّا خَيالَ إلهٍ، وقُدْرَةَ إلهٍ عَلى جَعْلِ الحلمِ حَقيقةً.

كَأَنِّي بِسَقَّال، في معلَّقتِهِ السَّادسةِ هذه، وَقَد تَسامى بالذَّاتِ الإنسانيَّةِ، في حالاتِها جَميعًا بمعلقاتِه الخمسِ السابقة، نبيٌّ من أنبياءِ الشِّعر، سَماؤهُ المحبرةُ، وسِدْرَتُهُ القَافية، وَالكلماتُ صَحْبُهُ ورَعيَّتُهُ.

وكأنِّي به، مُنْهَزِمًا أمامَ الحياةِ، يَعترفُ بأنَّ

الفَرَحَ باطلٌ باطلٌ، إلَّا في الحُلم، فَاخترَعَهُ لِيَحْياهُ، في القَصيدةِ، وَشالَ بها كِتابَ صَلاةٍ، تَلْتَقي فيهِ الآياتُ وَالمعجزاتُ، كي تَجْرَعَ مَعَهُ نَخْبَ الفَرَحِ الجَديد.

سرُّ هَذا الفَرحِ عَيْنَا امْرأةٍ طِفْلَةٍ: طِفْلَةٌ أُنْثى، مَعَ ما لِلْأُنوثَةِ مِنْ خَصْرٍ زَهْرٍ، وَبَسْمَةٍ عَنْدَلَةٍ، وشَعْرٍ حُقُولٍ، وَقِوَامٍ امْتِشاقِ عِطْرٍ، وَمُقْلَتَينِ نَبْعِ فَرَحٍ. وقَد اخْتَرعَها مِنْ شُرودٍ، وَافْتَرضَها مِن انْعِتاقٍ، وَاسْتَحْضَرها مِنْ غَيْبٍ، حتَّى تَماهى وَالذُّهولَ بها، لِتُصْبِحَ "حُضورًا ثَابتًا"، فَكانَ

كَوْنٌ جَديدٌ بِكْرٌ، هُوَ نَفْسُهُ الكونُ المخلوقُ في سِتَّةِ أَيّام، وَلَكِنْ في قَصيدَة هِيَ أَيضًا بِكْرٌ... وَكَانَ أَنِ اسْتَحالَ حُلْمُهُ حَقيقةً آسِرَةً، بَلْ قُلْ: قَدَرًا.

بِذَا، يُكْمِلُ سَقَّال تُحْفَةَ الخالِقِ، على مَا يَقُولُ سَعيد عقل، بِإِزْميلٍ مِنْ نُورٍ، يَنْبَثِقُ مِنْهُ قَوْسُ قُزَحَ، هُوَ جَميعُ السَّماءِ مَتَى انْعَقَدَ قَنْطَرةً فِيها، هُوَ أُنْثَاهُ الَّتي تَخْتَصِرُ جَميعَ النِّساءِ، فَتُشْرِقُ الشَّمْسُ فَرَحًا، تُمْطِرُهُ أَيْضًا تِلْكَ السَّماءُ، وَيحتَفِلُ الكونُ بِعُرْسِ الحُروف.

الإِنْسَانُ، في "كِتَابِ الفَرَحِ" هَذا، هُوَ أَيْضًا الخالقُ. هَكَذا شاءَه خالِقُهُ؛ مِنْ هنا يذكِّرنا الشَّاعرُ بما شاء الله.

وَبَعْدُ،

لا تَخْتَلِفُ "المعلَّقَةُ السَّادسة" عَنْ معلَّقاتِ سقَّال الخمسِ السَّابقةِ، غِنائيَّةً وانْسِيابيَّةً، وَسَكْبًا وَتَقْطيرًا، وَتَكْثيفًا وَتَرابُطًا، وَتَكْويرًا كما ليلٌ وَنهارٌ، وَإيحاءً: وَفْرَةَ صُوَرٍ، وَغِنى مَعانٍ وَمُفْرداتٍ. كَأَنِّي بِبُسْتانِ كَلِماتِها، بُسْتانُ نَفْسِهِ، لا ثِمارَ كَثِمارِهِ، وَلا ظِلال.

وَهِيَ، بَعْدُ، أَناشيدُ وَصَلَواتٌ، حَيْثُ لَا تَتَقاربُ الآياتُ وَالسُّوَرُ وَحَسْبُ، بَلْ قُلْ تَتَداخَلُ أيضًا؛ فَتُعَرِّجُ فِيهَا الكَلِمَةُ على الجُلْجُلَةِ، وتُسْرِي عَلى الصَّليب؛ تُصْلَبُ على الوَحْي، هِيَ الَّتي وُلِدَتْ علَى سِدْرَةِ المُنْتَهى، وَتَعْتَمِدُ بِنَهْرِ الحِبْرِ... فَتَكونُ قُرْآنَ التَّأْسيسِ وَالتَّكْوِينِ، وَإِنْجيلَ النُّور وَالفَرَحِ.

ديزيره سَقَّال، في مُعَلَّقتِهِ السَّادسةِ، أَكْمَلَ فِعْلَ التَّكوينِ، وَقَدْ رَأَى أَنَّ مَا أَتاهُ حَسَنٌ، فَاسْتَراحَ في اليَوْمِ السَّابعِ، يَوْمِ الفَرَحِ وَكِتَابِهِ.

وهَلِ الفَرَحُ غَيْرُ الشِّعرِ، والمعلَّقةِ، وَالقَصِيدةِ؟

وَهَلِ اللهُ غَيْرُ شاعِرٍ، عَلى ما قُلْتُ في كِتابي "مُبْتَدَأٌ جَاءَ خَبَرُهُ"؟ فَـ"اللهُ، إِلَى مَا هُوَ، سُبْحَانَهُ، شَاعِرٌ. الكَوْنُ، عُنْوَانُ دِيوَانِهِ: السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، الْيَابِسَاتُ وَالْمُحِيطَاتُ، النُّجُومُ وَالْكَوَاكِبُ، الْعَوَاصِفُ وَالنَّسَائِمُ، الشَّوْكُ وَالْأَزَاهِيرُ، الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ، الشَّوْقُ وَالْعِطْرُ، الْمَلَائِكَةُ وَالْجَمَالُ، الْغَلَالُ وَالْعَطَاءُ... قَصَائِدُهُ. وَأَحْلَاهَا، بَيْنَ هِلَالَيْنِ، الْقَمَرُ وَالشَّمْسُ...

قَصِيدَةُ الْأَرْضِ. لَكِنَّ أَحْلَى الْأَحْلَى... قَصِيدَةُ إِنْسَانِ تِلْكَ الْأَرْضِ".

قُلْ أَكْثَرَ؟

"كُلُّ امْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ... قَصِيدَةٌ فِي دِيوَانِ اللهِ!".

أَلَيْسَ هَذا ما يُؤَكِّدُهُ دِيزيره سقَّال في "كِتابِ الفَرَح"؟

حبيب يونس

خَارجًا مِنْ ذُهُولي

إِلى وَجْهِكِ المتَبَسِّمِ

آوي إِلَيْهِ،

وَأَرْحَلُ دُونَ الزَمانِ

فَأَغْرقُ في مُقْلَتَيْهِ...

كَأَنّي تَعَرَّتْ بِعَيْنَيَّ ذَاتُكِ

وَٱسْتَيْقَظَ الزَمَنُ المطْمَئِنُّ

غَريبًا...

علَى طِفْلَةٍ

لَمْ تَزَلْ تَحْمِلُ العُمْرَ

خَمْسَ سِنينَ

وَيَجْلِدُها القَدَرُ المتَواتِرُ،

وَامْرَأَةٍ

أَشْرَقَتْ في ذُهُولِ التَجَلّي

وَذَابَ عَلَى وَجْنَتَيْها القَمَرْ

وَمِنْ شَعْرِها انْداحَ

خِصْبُ اليَنابيعِ،

وَارتَاحَ في قَلْبِها اللهُ

بَعْدَ سَفَرْ...

طِفْلَةٌ وامْرَأَهْ

تُشْعِلانِ الحَياةَ،

تُعِيدانِ نَبْضَ الحَرَارةِ

في ذَاتِها المطْفَأَهْ...

* * *

وَأنا... لَيسَ فِيَّ سِوايَ،

تَأَمَّلْتُ وَجْهَكِ حِينَ تَسَلَّلَ

بَيْنَ مَسَامّي

قَوِيًّا... كَصَوْتِ القَدَرْ

وَعَبَرْتُ الذُهولَ...

وَئِيدًا... وَئِيدًا...

كَأَنِّي... نَسِيْتُ البَشَرْ...

كَأَنّكِ لَخَّصْتِ فِيَّ،

مَتَى جُزْتِ بابَ كِيانِي،

جَمِيعَ البَشَرْ...

* * *

كَيْفَ نَسِيْتُ حُضورِيَ فِيكِ!

نَسِيْتُ الحاضِرَ وَالماضِيَ

وَامْتَزَجَتْ فِيَّ الأَوْقاتْ

لِيَصِيرَ زَمَانُ الناسِ غِيَابًا

وَحُضُورُكِ أَنْتِ بَقاءً أَخْضَرَ

يَرْشَحُ مِنْهُ الشِعْرُ

وَتَحْلُمُ فِيهِ الكَلِماتْ...

وَعَرَفْتُ بِأَنَّ مَجيئَكِ

يَرْوي عَطَشَ الفَجْرِ الظّامِي

وَيُلَخِّصُ كُلَّ النَّبَضاتِ...

كَيْفَ نَسِيْتُ حُضُورِيَ فِيكِ!

كَيْفَ تَرَكْتُ كِيَانِيَ

- كُلَّ كِيَانِيَ -

فِي عَينَيْكِ!

وَهَجَرْتُ الزَمَنَ الخَارِجَ مِنْ لَحَظَاتِي...

وَانسَحَبَ الوَقْتُ فِي خَجَلٍ،

وَتَكَشَّفَ جِسْرُ العُبورْ!

صَارَ هذا الزَمانُ صَديقي

يَجِيءُ إِلَيَّ أَليفَا

وَيُجَالِسُنِي في هُدُوءٍ

وَيَفْتَحُ بابَ حَياتِي،

يَمُرُّ عَلَى مُقْلَتَيَّ

لَطيفًا... لَطيفَا...

وَكانَ يُقيمُ حُضورُكِ

فِي الغَيْبِ،

يَزْرَعُ جِسْرَ المسافَةِ شَوْقًا

وَيَنْتَظِرُ الصَمْتَ أَنْ يَتَفَتَّحَ وَرْدًا،

وَأَنْ يَتَعَالَى الحُبُورُ

عَلَى جُزُرِ الصَمْتِ

قَصْرًا مُنِيفا...

تَمُرِّينَ أَنْتِ

كَطِفْلٍ يُلامِسُ قَلْبِي بِرِقَّتِهِ،

وَتَمُرّينَ كَامْرَأَةٍ

وَبَيْنَ الهُدوءِ

وَبَيْنَ القَلَقْ...

* * *

سَأَقولُ: سَلامًا

لِلزَمَنِ الطّالعِ مِنّا

يَتَلَأْلَأُ فِي الأَرْضِ كَحَقْلِ سَنابِلْ...

سَأَقُولُ: سَلامًا

لِلْسِحْرِ الخارِجِ مِنْ لُغَةٍ

تَكْتُبُ فِي دَفْتَرِها

شِعْرَ الشَجَرِ المزْرُوعِ

عَلى شُطْآنِ طُفُولَتِكِ،

وَتُظَلِّلُ سَهْلَ نَقاوَتِكِ،

وَتُهَدِّلُ فِيكِ الصَلَواتِ جَدَائِلْ...

سَأَقُولُ: سَلامًا

لِلشَمْسِ تَموتُ وَتولَدُ

فِي عَيْنَيْكِ

كَعُرْسِ خَمَائِلْ...

سَأَقُولُ: سَلامًا

لِلثَلْجِ النّاصِعِ فِي طِفْلَتِيَ الأُنْثى

وَهْيَ تَفِيضُ خُلودًا

فَوْقَ الزَمَنِ الزَائِلْ... –

سَأَقولُ: سَلامًا

يَا مَنْ يَقْتُلُني

لأَعودَ جَديدًا... بِكْرًا،

وَأُقَبِّلَ كَفَّ القاتِلْ.

– ٣ –

حِينَ أَخْرَجَكِ الأَلَقُ المتَفَتِّحُ

مِنْ مُهْجَةِ الغَيْبِ

كُنْتِ سَرابًا

بِعُمْقِ الحُضُورِ الـمَليءْ،

وَالزَمانُ الَّذي يَتَوَاتَرُ حَوْلِيَ

بابٌ إلى آخِرِ الوَقْتِ

حَيْثُ انْبِلاجُكِ أُفْقٌ مُضِيءْ...

كانَ بَيْنِي وَبَيْنَ انْكِشافِكِ

صَمْتٌ طَويلٌ

تُواكِبُهُ هِجْرَةٌ مِنْ دِماءٍ

وَدَمْعُ الطُفولَةِ يَشْهَدُ

عُمْرًا جَريءْ.

كُلُّ شَيْءٍ يُشيرُ إِلَيْكِ

وَلَكِنَّني لَمْ أَرَهْ!

كُلُّ شَيْءٍ تَجَلّى لِعَيْنَيْكِ، بَعْدُ،

وَواكَبَني وَجْهُكِ المتَبَسِّمُ

في الأَوْجُهِ العابِرَهْ.

كانَ بَيْني

وَبَيْنَ الظِّلالِ الَّتي حَمَلَتْهَا حَياتِي

حَنينٌ إِلَيْكِ،

وَما عَرَفَ القَلْبُ يَوْمًا سِواكِ،

وَلا آخْتَرَعَ الحُلْمُ فِيَّ

سِوى امْرَأَةٍ...

لَمْ تَكُنْ حاضِرَهْ!

كانَ بَيْنِي وَبَيْنَ الحَقيقَةِ

ثانِيَةٌ

تَتَكَرَّرُ كَالعُمْرِ،

أَقْوى مِنَ العُمْرِ،

تَفْتَحُ بَابَ الغَرابَةِ

حينَ تَراني...

مَنْ تَكُونِينَ أَنْتِ، إِذًا؟

كَيْفَ جِئْتِ إِلى مَعْبَدي المسْتَكينِ

بِوَحْدَتِهِ

وَانْبَثَقْتِ كَشَمْسٍ

تُضيءُ بِذاتي جَميعَ المعاني! –

تُرَى الأَرْضُ بابٌ إِلَيْكِ

وَمَنْفَذُهُ في فَضَاءِ الضِّياءِ الطَويلِ؟

تُرى جِئْتِ مِنْ حُلُمِ الشِّعْرِ

وَهْوَ يَصوغُ حُروفَ الأَماني؟

كَيْفَ أَخْتَرِعُ اللَحْظَةَ الآنَ

وَاللَحَظاتُ انْتَهَتْ فيكِ

وَالكَوْنُ مُنْبَثِقٌ حَوْلَنا

خَلْفَ هَذا المكانِ؟

كُلُّ شَيْءٍ يَذُوبُ بِعَيْنَيْكِ، بَعْدُ،

لِيَخْرُجَ بِكْرًا...

ولا شَيْءَ يَبْقَى عَلى حَالِهِ ثابِتًا

غَيْرُ عَيْنَيْكِ...

كُلُّ المدى باطِلٌ...

كُلُّ مَا عَمِلَ النّاسُ

تَحْتَ السّمَاءْ

باطِلٌ...

باطِلٌ...

كُلُّ ما كَتَبَ الشِّعْرُ

مِنْ غَمْغَمَاتِ العَناءْ

باطِلٌ...

باطِلٌ...

كُلُّ شَيْءٍ تَغَيَّرَ حَوْلي

سِواكِ،

وَعَيناكِ مِروَحَةٌ لِلزَمانِ.

كُلُّ شَيْءٍ،

لأَنَّهُ مَرَّ بِعَيْنَيْكِ،

صارَ وُجودًا،

وَحينَ مَرَرْتُ بِعَيْنَيْكِ

أَدْرَكْتُ أَنَّ الخُلودَ رَآني،

وَأَنِّي تَحَوَّلْتُ أُسْطُورَةً

فِي كِتابِ الحَياةِ

تُلَخِّصُ لِلْكَوْنِ ما قَدْ عَراني،

وَتَمشي إِلَى الأَبَدِ المشْرَئِبِّ،

تُصَيِّرُهُ لَحْظَةً

عَبَرَتْ فِي اسْتِدارَةِ عَيْنَيْكِ،

تَرْسُمُ وَجْهَ الإِلَهِ المخَبَّإِ

خَلْفَ ضِياءِ كِياني.

* * *

يَتَغَيَّرُ هَذا الجَسَدُ المحْبوكُ

مِنَ الصَّلْصَالِ

مَتَى نَظَرَتْ عَيْنَاكِ إِلَيْهِ

وَيَعودُ إِلَى مَهْدِ التَكْوينْ،

وَتَصيرُ الأَشْيَاءُ رَذاذَ سَناءٍ

يَخْرُجُ مِنْ أَعْماقِ الطينْ...

خارِجَ عَيْنَيْكِ غِيابٌ مَمْدودٌ

وَبِحارٌ مِنْ صَمْتٍ...

وَظَلامُ...

يَلْبَسُنِي العِشْقُ كَجِلْبابٍ أَبْيَضَ،

وَالتّارِيخُ يَصيرُ جُمُوحًا،

وَالأَيّامُ

تَتَعَلَّمُ أَنْ تَصْنَعَ

مِنْ هَذَا العِشْقِ

فَناءً في النّورِ

لِتَنْفَتِحَ الأَحْلامُ –

يَا هَذَا الفَرَحُ الطّافِرُ مِنْ عَيْنَيْها

كَيْفَ أَعُودُ إِلَى ذاتِي

وَأُذَوِّبَ نَفْسِي فِي كَلِماتي

لأُشَرِّعَها فِيكَ...

وَكَيْفَ تُعَبِّرُ عَنْكَ الأَقْلامُ؟

— ٤ —

كَمْ تَرَبَّعْتُ في ضَوْءِ عَيْنَيْكِ

حِينَ عَرَفْتُكِ

أَرْتَاحُ في شُرْفَةٍ مِنْ أَثيرْ...

كَمْ جَرَيْتُ مَعَ الدَمْعِ

فِي فَرَحِ الأُمْنِياتِ

وَأَرَّخْتُ هذا الهُدوءَ الوَثيرْ...

كَمْ سَمِعْتُ بِصَمْتِكِ

وَقْعَ الضَّجيجِ المدَوِّيَ

فِي حَرَكاتِ الكَواكِبِ،

وَالشَّمْسُ تُشْرِقُ

فَوْقَ أَمَانِي الدُّهورِ

وَتَقْرَأُ قَلْبي كَثيرًا...

وَتَحْضِنُ شِعْرِي كَثِيرًا...

وَتَنْبِضُ فِي فَرَحي

مِثْلَ ضَوْءٍ مُثِيرْ...

لَمْ تَغِبْ غَفْلَةً عَنْكِ

لَكِنَّها أَحْجَمَتْ أَنْ تَمَسَّ بَريقَكِ،

خافَتْ، إذَا احْتَرَقَتْ،

أَنْ يَعُمَّ الظّلامُ،

وَأَنا خِفْتُ،

حينَ انبَثَقْتِ إِلَيَّ مِنَ الغَيْبِ،

أَنْ يُتْلِفَ الحُلْمَ

في نَبَضاتِ عُرُوقي الكَلامُ...

وَرَأَيْتُ مَعَ الحُلْمِ كُلَّ كِياني

يُضيءُ بِعَيْنَيْكِ

أُغْنِيَةً مِثْلَ لَوْنِ الفَرَحْ،

وَرَأَيْتُ مَعَ الحُلْمِ رُوحي

تُطِلُّ عَلَى الكَلِماتِ

كَقَوْسِ قُزَحْ.

* * *

أَتَطَهَّرُ فِي مَا يَغْسِلُ

هَذَا البَوْحَ البِكْرَ

وَيَجْعَلُ تَنْهِيداتِ الفَجْرِ

حُرُوفًا لِلزَمَنِ الآتِي...

أَغْسِلُ فِي روحِكِ

لَوْنَ العالَمِ،

أَمْلأُهُ بِالأَلَقِ الخارِجِ مِنْ فَلَواتِي...

سَأَعُودُ سَدِيمًا

يولَدُ فِي حَرْفٍ بِكْرٍ؛

سَأَصيرُ هَباءً

أَصْفى مِنْ لَوْنِ التَكْوينِ

وَأَصْنَعُ مِنْ وَحْيي عُمْري...

سَأُسَمّي الأَشْيَاءَ ذُهولاً فيكِ،

أُسَمّي الكَوْنَ حُضورًا فِي عَيْنَيْكِ،

أُسَمّي شُرُفاتِ الوَقْتِ

مَدًى لا لَوْنَ لَهُ،

وَالحَيْرَةَ نارًا

تَصْهُرُ وَعْيَ البَشَرِ...

سَأُذَرّينِي فِي خَمْرِ المَعْنى

حينَ تَصيرُ جَميعُ مَعانِي الدُنْيا

حَرْفًا يَبْقَى فِي سَفَرِ،

سَأُظَلِّلُ هَذَا الضَوْءَ بِروحِكِ

كَيْ يَرْحَلَ فِي الشِّعْرِ

فَأَصْنَعَ مِنْ حُلُمي قَدَري...

— ٥ —

يَخْرُجُ الضَوْءُ مِنْ حَقْلِهِ المتَمَدِّدِ

عَبْرَ حُدودِ السَماءْ

وَيُساكِنُ رُوحَكِ...

تَبْتَسِمُ الأَرْضُ مَذْهولَةً،

وَالقَصِيدَةُ تَمْتاحُ

مِنْ شَفَتَيْكِ كَلامًا

لِتَغْدو سَناءْ...

تَتَشَرَّدُ فِي شَفَتَيْكِ الأَغاني

كَأَنَّ المعَاني

تَفَتَّحُ فيها

كَسُنْبُلَةٍ حَبُّها ناضِجٌ

كَرَغيفِ اشْتِهاءْ.

لَكِ أَنْتِ

تَحَدَّرَ ضَوْءُ السَماءِ

إِلى الأَرْضِ

وَامْتَدَّ دَالِيَةً مِنْ حُقولِ الفَرَحْ،

أَيْقَظَ الطِفْلَةَ النّائِمَهْ.

وكُنْتِ كَبِرْتِ

وَلَمْ تَكْبَرِي...؟!

كَيْفَ كُنْتِ فَقَدْتِ ضِيَاءَكِ

فِي زَمَنٍ ضاعَ مِنْهُ المرَحْ؟!

وَحَمَلْتِ ضَياعَكِ فِي هِجْرَةٍ غائِمَهْ؟

صانَكِ الوَجَعُ المتَفَتِّحُ

داخِلَ قَلْبِكِ

مِثْلَ يَمامَةِ بَوْحٍ وَعِشْقٍ

فَعُدْتِ إِلَى الوَحْيِ...

بَيْضاءَ... بَيْضاءَ...

أَكْثَرَ نورًا مِنَ العِشْقِ

تَخْرُجُ مِنْ ذاتِها

لِتَعودَ إِلَيْهَا

كَدُودَةِ قَزٍّ

تُحَلّي الحَريرَ بِعَوْدَتِها،

وَتَفَتَّحْتِ فارِهَةً فِي رَخاءْ...

لَكِ أَنْتِ

تَفَتَّحَ مِعْراجُ قَلْبي

وَقَدْ مَرَّ دَهْرٌ...

كَأَنَّ الزّمَانَ الَّذي ضاعَ

ثانِيَةٌ

لَمْ تَعُدْ فِي الزَمانِ،

كَأَنَّ اللِقاءْ

سَمَّرَ العُمْرَ

في لَحْظَةٍ أَبَّدَتْ فَرَحَ الكَوْنِ

مِنْ أَجْلِنا

تَجْبُلُ الكَوْنَ طينًا جَديدًا

لِنَخْلُقَ مِنْ عُمْرِنا

ما نَشاءْ...

* * *

فِي الخَطَوَاتِ تُعَرِّشُ دالِيَةٌ

وَتَصيرُ نُجومُ اللَيْلِ

قَوَافِيَ شِعْرْ...

رُوحانا

مَرْجٌ...

تَطْلُعُ فِيهِ صَلَوَاتُ الأَعْلَى

زَهْرًا،

وَالعِشْقُ الأَبْيَضُ

يَقْطِفُ هَذَا الزَهْرْ...

وَرُؤانا

تَكْتُبُ تاريخَ الوَجْدِ

وَتَغْدو السِّحْرَ

وَصَوْتَ السِّحْرْ...

* * *

أَلريحُ تُعانِقُنا

بِالضّوْءِ الثّلْجِيِّ الصّافي،

تُشْعِلُ مِصْباحَ الوَجْدِ

وَتَقْرَأُنا...

حَرْفًا حَرْفًا...

وَتُهيلُ عَلَيْنَا

إِنْجيلَ الصَبْرِ

وَقُرْآنَ التَأْسِيسْ،

وَالأَبَدُ النَائِمُ فِي عَيْنَيْنَا عُرْسٌ،

وَالنُورُ الفَائِضُ مِنّا رَقْصٌ،

وَالفَرَحُ المَمْدودُ عَريسْ...

– ٦ –

لَكِ يَفْتَحُ هَذا الوُجودُ تَباريحَهُ

ويُكاشِفُ مِعْراجَهُ...

وَيَنامْ...

كُلُّ أَرْضٍ سَماءٌ بِنا،

كُلُّ شَهْقَةِ قَلْبٍ

تَبوحُ بِأَسْرارِ كُلِّ التّواريخِ

فِي مَلَكوتِ الكَلامْ...

لَكِ أَنْتِ

يُغَنّي الصّباحُ

عَلى شُرْفَةِ الشّمْسِ،

وَاللَيْلُ يَكْتُبُ

مِنْ حِبْرِ عَيْنَيْكِ أَنْجُمَهُ،

وَالمسافَةُ جُرْحٌ...

كَأَنَّ الأَنامْ

فِي مَتاهَاتِها تَتَشَرَّدُ والِهَةً

بَيْنَ جوعِ المدى وَالظّلامْ.

وَالطَريقُ الَّتي رَسَخَتْ فيكِ

وَاخْتَرْتُ أَنْ أَزْرَعَ الخَطْوَ فِيها

زَهَتْ بِالحُضورِ،

وَأَخْرَجْتِها مِنْ مَلالَتِها

كَيْ تَصيرَ صِراطًا

لِمَنْ قَدَّسَ العِشْقَ –

أَنْتِ الطَّريقُ التي جَذَبَتْنِي إِلَيَّ

فَأَرَّخْتُ فيها انْكِشافَ الفَرَحْ

وَأَسْرَيْتُ لَيْلًا...

فزُرْتُ سَماواتِ عَيْنَيْكِ

ثُمَّ انْحَدَرْتُ إِلَى الأَرْضِ،

مِنْ فَوْقُ،

قَوْسَ قُزَحْ...

وتَأَمَّلْتُ فِي سِدْرَةِ المُنْتَهى

وَجْهَ رَبّي

فَكانَ السّناءُ الَّذي آنْدَاحَ مِنْهُ رُموشَكِ،

وَالصّلَواتُ الَّتِي رَنَّمَتْ فِي السّماءْ

شَعْرَكِ المتهَدِّلَ

بَيْني وبَيْنَ حُقولِ البَهاءْ...

لَكِ أَنْتِ

يُحَلّي الصّفاءُ برائِحَةِ الضَوْءِ

لَوْنَ المياهِ،

وَيَنْتَثِرُ الأَلَقُ البِكْرُ

عَبْرَ مِساحَةِ عَيْنَيْكِ

مُلْتَمِعًا كَرَذاذِ الزَبَدْ،

وَيَصيرُ الغِناءْ

وَهْوَ يَخْرُجُ مِنْ شَفَتَيْكِ

تَرانيمَ خَلْقٍ

تُعيدُ بِرِقَّتِها

خَلْقَ هَذا الفَضاءْ...

* * *

أَلْفَجْرُ النّازِلُ مِنْكِ سَديمٌ شَفّافٌ

يَغْمُرُني

بِرَذاذِ الوَحْيِ،

وَيَكْتُبُني

فِي سِدْرَةِ قَلْبِكِ،

يَسْكُبُنِي

كَالحِبْرِ

لِأُخْرِجَ مِنْ بَيْنِ أَصابِعِكِ الأَحْلامْ...

وَدَمِي

يَتَلَوَّنُ مِنْ قَمْحِ كِيانِكِ،

يَهْمُسُ

كَيْ تَتَجَدَّدَ كُلُّ الأَنْغامْ...

أَفْراحِي مَا عادَتْ أَفْراحِي،

صارَتْ جِسْرًا لِلْوَلَهِ الكَوْنِيِّ

وَلِلْأَحْلامِ الكَوْنِيَّهْ...

وَجُنُوني

فَرَسٌ بَيْضاءُ

تُمَهِّدُ مَحْمَلَها

لِلرَفْضِ الخارِجِ

مِنْ زَوْبَعَةِ الأَبَدِيَّهْ.

صارَ الكَوْنُ فُتونًا

حِينَ كَتَبْتِ دَمي

وَذُهولًا

يَصْنَعُ مِنْ لُغَةِ الأَشْياءِ البِكْرِ

فَضاءَ الحُرِّيَّهْ...

* * *

هُوَذا وَطَني فيكِ،

وَأَرْضي

صَفْحَةُ وَحْيٍ بَرّاقٍ

وَقَصيدَةُ حُورِيَّهْ...

– ٧ –

طِفْلَةٌ تَتَكَرَّرُ فِي جَسَدِ امْرَأَةٍ

خَرَجَتْ مِنْ حُدُودِ الزَمانِ

إِلَى الأَلَقِ المسْتَحيلْ،

شَدَّها الحُلْمُ نَحْوي

فَطِرْتُ إِلَى وَحْيِها المتَجَلّي

وَعَرَّجْتُ فِيها

عَلَى سِدْرَةِ المُنْتَهى

بِالذُّهولِ الطّويلْ...

لَمْ أَجِدْ فِي تَكَاوِينِها

غَيْرَ ذاتي –

وذاتي "أَنَا"ها!

هَبَطَتْ مِنْ صَفاءِ الأَساطيرِ

وَانْشَعَبَتْ فِي سَناها

طِفْلَةٌ وَامْرَأَهْ

تُخْصِبانِ مَدى أَرْضِنا الدّافِئَهْ،

طِفْلَةٌ وَامْرَأَهْ

صاغَ بَينَهُما الوَحْيُ سِرَّ النَبُوءاتِ

حِينَ تَماوَجَ أَبْيَضَ كَالثَلْجِ،

وَانْداحَ شِعْرًا مُضِيئًا...

حَمَلَتْ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْهُمَا وَجْهَها

فِي صَدى الحِبْرِ وَالكَلِماتِ

وَظَلَّتْ عَلى أُفُقِ الذّاكِرَهْ

خاطِرًا فِي البَريقِ

أَشَدَّ حُضورًا

مِنَ الضَّجَّةِ السّاهِرَهْ.

كانَ مَنْفايَ فيكِ

سُؤالاً بِغَيْرِ جَوابٍ،

وَكُنْتُ أَراكِ

عَلى غَيْمِ رُوحي

حُقولاً مِنَ الغِبْطَةِ الآسِرَهْ...

وَمَنْفاكِ مَنْفايَ –

نَزْهُو مَعًا

فِي قَصيدَتِنا الطّافِرَهْ

وَنُعَبِّئُ بِالحَيْرَةِ المُسْتَريحَةِ

هَذا الوُجودَ المُفَرَّغَ مِنْ ذاتِهِ

فِي ضَياعِ السَفَرْ...

نَحْنُ تَارِيخُنَا

وَقَصِيدَتُنَا الحائِرَهْ،

نَحْنُ كُنْهُ الوُجودِ الَّذي

صَنَعَتْهُ البَشَرْ.

نَحْنُ هَذا الفَضاءُ الَّذي سَطَّرَ الحُلْمَ

فِي لُغَةٍ

تَتَرَدَّدُ حَوْلَ المدى...

كَالشَرَرْ.

نَحْنُ مِحْبَرَةُ الخَلْقِ

وَالشِعْرُ يَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ المِحْبَرَهْ.

* * *

أَللَهَبُ الجاثِمُ في سِدْرَةِ هَذا الكَوْنِ يُحَرِّكُنا

وَيُعَرِّشُ فِي ذَاتَيْنا:

لَهَبٌ وَطَنِي...

لَهَبٌ مَنْفَايَ الرَائِعُ

أَجْثُو فِيهِ

بِصَمْتِ الصّخَبِ...

لَهَبٌ يَكْتُبُ

هَذَا التّارِيخَ الخارِجَ مِنَّا

بِنُجُومِ الرُؤْيا

وَبِتاريخِ الزّهْوِ المَعْقودِ رَذاذَ نُجومٍ...

لَهَبٌ أَبْيَضُ

يَنْبِضُ فِي عَصَبي...

لَا شَيْءَ سِوانا

فِي أَبَدِيَّةِ عُمْرٍ

يَخْرُجُ مِنْ عُمْقِ رُؤانا.

لا شَيْءَ سِوانا

فِي المَلَكوتِ المتَفَتِّحِ

حَوْلَ مُنانا...

لَا شَيْءَ

سِوى أَبَدٍ أَبْيَضَ

يَقْرَأُ فاتِحَةَ الأَشْياءِ

وَيَلْعَبُ فِي مُطْلَقِنَا...

وَيَجولُ.

كُلُّ زَمانِ الدُّنْيا

غارَ بحَرْفٍ مِنْ شَفَتَيْكِ

وَأَزْهَرَ فِيهِ مَلَكوتٌ

وَمَدًى

وَسُهولُ...

يا هَذا البَوْحَ المتَراكِمَ فِي ثَغْرِي

كَيْفَ أُعَبِّرُ، بَعْدُ،

عَنِ المعْنى الأَبَدِيِّ

وَماذَا سَأَقولُ؟

– ٨ –

خَرَجَ الفَجْرُ مِنْ مُقْلَتَيْكِ

وَمَدَّدَ أَضْواءَهُ فَوْقَ رُوحي

وَأَزْهَرَ فِي كَلِماتي.

سَأُوَشْوِشُ فيكِ الزّمانَ الَّذي

عادَ أَدْراجَهُ

حينَ لامَسَ وَجْهَكِ

ثُمَّ تَناثَرَ مِثْلَ الرَّذاذِ

عَلَى نَظَراتِي...

سَأُحَرِّضُ هَذا الرَحيلَ إِلى النّورِ

كَيْ يَخْرُجَ المسْتَحيلُ إِلَيْنا

وَيُغَنِّي عَلَى وَجْنَتَيْنا

كَطِفْلٍ صَغيرٍ...

سَأَجْعَلُ هَذا الظّلامَ المضيءَ

يَنامُ عَلَى ساعِدَيْنَا

وَأَجْعَلُ هَذي النُجومْ

تَفْتَحُ الفَرَحَ المتَفَجِّرَ

بَيْنَ الثَرى وَالتُخومْ...

أَيُّها الفَرَحُ المتَفَتِّحُ

فِي وَجْنَةِ العِشْقِ،

فِي غَمْغَماتِ المدى،

كُنْ سَلامَ الهُدوءِ الَّذي لا يَدومْ.

أَيُّها الفَرَحُ المتَدَفِّقُ

مِنْ ناظِرَيْنا،

كُنْ خُطانا إِلى الشَمْسِ...

كُنْ أَلَقَ العِشْقِ

يُزْهِرُ بَيْنَ يَدَيْنا...

سَتَصِيرُ الغُيُومْ

لُغَةً للرَحِيلِ إِلى الحِلْمِ

وَالرِيحُ رايَتَها،

وَالطُيورُ زَوارِقَ

تُبْحِرُ فِي عُمْرِها

هَائِماتٍ، شَرِيدَهْ...

سَيَصيرُ الزَمانُ

حُروفًا مِنَ الأَبَدِ المتَلَأْلِئِ

بَيْنَ سُطورِ الدَوالي

وَزُهْدِ الكُرومْ

وَنصيرُ كِلانا القَصيدَهْ...

* * *

أَلقَلْبُ يَسيلُ حُروفًا،

وَالتّاريخُ يُسَطِّرُهُ الوَحْيُ

فَيَخْرُجُ مِنْ مِحْبَرَةِ الوَجْدِ جَديدًا،

وَيُعيدُ صِناعَةَ مَمْلَكَةِ الأَشْياءْ...

وَرُؤانَا

تَتَشابَكُ فِي أَعْلاهَا،

تَكْشِفُ عَنْ وَحْيٍ ضَوْئِيٍّ

يَنْصَبُّ عَلَيْنا

مِنْ أَعْلى السَّمْتِ

وَيَحْمِلُ مَعْنى الأَسْماءْ...

عَلِّمْنا، يا شِعْرُ، الآياتِ المَحْفورَةَ

فِي قُرْآنِ التَكْوينِ،

وَعَلِّمْنا أَنْ نَصْنَعَ

مِنْ هَوْلِ الموْتِ حُضورًا،

وَمِنَ الصّمْتِ قَصائِدَ

تَحْمِلُ صَوْتَ مَلائِكَةِ الفِرْدَوْسِ...

وَعَلِّمْنا

أَنْ نَسْكُنَ فِينا،

أَنْ نَنْظُرَ نَحْوَ النّورِ الفائِضِ مِنْ عَيْنَيْنَا.

* * *

أَلقَلْبُ يَسيلُ حُروفًا

وَاللُغَةُ البِكْرُ تُعيدُ كِتابَةَ هَذا الكَوْنِ

بِآياتِ القَلْبِ –

هُنَا البَشَرُ

أَصْوَاتٌ تَتَجَسَّدُ مِنْ فَوْقُ،

وَتَحْمِلُ رُوحَ الأَعْلى فِي دَعَةٍ،

وَتُحَقِّقُ حُلْمَ الشِّعْرِ،

وَتَبْتَكِرُ...

وَهُنَا صَوْتُ الآتي

يَرْسُمُ أُغْنِيَةَ الماءِ

وَيُعَانِقُ غَمْغَمَةَ الأَشْياءِ...

وَاللَيْلُ جَدائِلُ وَحْيٍ،

وَالوَقْتُ يُعانِقُهُ ضَوْعُ وُرودٍ عَطِرُ...

وَهُنَا النَظَرُ

يَمْتَدُّ إِلَى ما فَوْقَ الدُنْيا

لِيَرانَا

تُنْزِلُ غَيْثَ الأَرْضِ يَدانا،

وَيَرانا

يَتَهاوَى الوَقْتُ عَلَى أَعْقابِ خُطَانا

وَيَعودُ إِلَى الزّمَنِ المخْذولِ

وَيَنْكَسِرُ...

– ٩ –

ذَرْذَرَ الخَلْقُ آياتِهِ

مِنْ مَسامّكِ،

وَانْبَثَقَتْ مِنْ رُؤى شَفَتَيْكِ السُوَرْ.

فَرَحُ الخَلْقِ يَنْبِضُ حَوْلَكِ،

واللهُ زَرْكَشَ مِنْ ناظِرَيْكِ الزَهَرْ،

وَاسْتَقَرَّ عَلَى صَهْوَةِ الكَوْنِ

يَنْظُرُ ما صَنَعَ الحُلْمُ

حِينَ تَجَسَّدَ فِي بَشَرٍ

فَتَجاوَزَ حَدَّ البَشَرْ.

كُلَّمَا كَتَبَ الشِّعْرُ تارِيخَهُ

كانَ أَصْفى بِعَيْنَيْكِ...

وَازْدَدْتُ نورًا

مَتى زُرْتِ عَيْنَيَّ،

وَازْدادَ فِيَّ الصّفاءْ،

وَعَرَفْتُ امْتِلاءَ الحُضورِ،

عَرَفْتُ انْكِشافَ الزّمانِ،

عَرَفْتُ الوِلادَةَ فِي سَرْمَدٍ

مُسْتَحيلِ البَهاءْ...

كُلُّ غِبْطَةِ هَذَا الوُجودِ

تَراءَتْ لِعَيْنَيَّ فِي أَبْيَضٍ،

وتَعالَى النِداءْ

مِثْلَ صَوْتِ الأُلوهَةِ فِي الخَلْقِ

يَنْداحُ فِيكِ،

وَيَرْحَلُ فِي ناظِرَيْكِ

كَأَنَّ يَدَيْكِ

تَرُدّانِ لِلْكَوْنِ حالَ العَراءْ،

وَكَأَنَّ الإِلَهَ اسْتَرَاحَ أَخيرًا،

يُتَمْتِمُ فِي صَلَواتِ العُلى:

"هَا صَنَعْتُ مِنِ امْرَأَةٍ

أَكْمَلَ الخَلْقِ فِي لَيْلَةٍ،

وَجَميعَ النساءْ...!"

* * *

أَلْفَرَحُ النَازِلُ مِنْ فَوْقُ

سِلالٌ مِنْ نورْ

وَالأَلْوانُ البَرّاقَةُ

تَخْرُجُ مِنْ أَعْماقِ الدَّيْجورْ...

وَالأَبَدُ المتَفَجِّرُ مِنْ أَعْلى

يَنْهَلُّ عَلَيْنا...

وَيُراقِصُنا

فِي المَلَكوتِ المسْحورْ...

* * *

أَلْفَرَحُ النّازِلُ مِنْ فَوْقُ يُصَلّي

فِي قُدّاسِ الصّحْوِ المتَجَلِّي،

وَالزَهْوُ نَشيدٌ

مِنْ لَوْنِ الأَلَقِ المنْثورْ...

* * *

أَلْفَرَحُ النّازِلُ وَجْهُ التَّكْوينْ،

دِيوانُ الشِعْرِ الآتِي،

أَحْفُرُ نُورَهُ فِي كَلِمَاتي،

أُخْرِجُهُ كَوْنًا

مِنْ أَعْماقِ الطّينْ...

* * *

أَلْفَرَحُ النّازِلُ مِنْ عَيْنَيْكِ

عُرْسُ الكَوْنْ

يَتَقَافَزُ مِنْهُ اللَوْنْ

لِيَصِيرَ صَدى آيَاتٍ

فِي شَفَتَيْكِ...

* * *

نَبْدَأُ مِنْ أَبَدٍ

هَذي الرِحْلَةَ فِي الأَضْواءْ...

نَبْدَأُ مِنْ عِشْقٍ

يَتَحَدَّرُ مِنْ رَبٍّ وَسَماءْ...

نَبْدَأُ مِنْ بَسَمَاتِ الأَبَدِ

ٱلمتَمَدِّدِ حَوْلَ مَبَاخِرِنا

لِنَرُدَّ إِلَى الكَوْنِ الدَهْشَةَ وَالأَلْوانَ

وَنَحْفَظَ فِيهِ

غِبْطَتَهُ النُورانِيَّهْ...

نَبْدَأُ مِنْ ضِحْكاتِ الأَطْفالِ

وَمِنْ عَبَقِ الأَلْوانِ الزَهْرِيَّهْ

وَنُعَبِّدُ هَذا الشَفَقَ الخارِجَ مِنَّا

أَوْسَعَ مِنْ أَحْلامِ الأَرْضْ

يَتَحَرَّكُ فِي أَعْماقِ الرَّفْضْ

وَيُعانِقُ لَوْنَ الحُرِّيَّهْ...

* * *

أَللهُ السّاكِنُ فِي عَيْنَيْكِ

يَفِيضُ عَلَيَّ

وَيَجْعَلُنِي حَرْفَ قَصيدَتِهِ

لِتَكُونِي أَنْتِ الوَحْيَ البِكْرَ

وَأَنْتِ اللغَةَ البِكْرَ...

وَتَنْسُلَ فِيكِ الأَحْلامُ...

أَلْخَلْقُ يَتِمُّ الآنَ

فَأَلْبَسُ عَيْنَيْكِ

وَأُغْرِقُ فِي الفَرَحِ المتَقَافِزِ نَفْسِي

وَأَنامُ...

(٤ - ٢٨/ ٦/ ٢٠١٤)

كُلُّ غِبْطَةِ هَذَا الوُجودِ

تَراءَتْ لِعَيْنَيَّ في أَبْيَضٍ،

وتَعالَى النِداءْ

مِثْلَ صَوْتِ الأُلوهَةِ في الخَلْقِ

يَنْداحُ فِيكِ،

وَيَرْحَلُ في ناظِرَيْكِ

كَأَنَّ يَدَيْكِ

تَرُدّانِ لِلْكَوْنِ حالَ العَراءْ،

وَكَأَنَّ الإِلَهَ اسْتَراحَ أَخيرًا،

يُتَمْتِمُ في صَلَواتِ العُلى:

«هَا صَنَعْتُ مِنِ امْرَأَةٍ

أَكْمَلَ الخَلْقِ في لَيْلَةٍ،

وَجَميعَ النساءْ...!»